مجلة منتدى الأستاذ
المجلد: 21 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2025 الصفحات 404- 415

الأنساق المضمرة للذات الأنثوية المهمشة

– قراءة في تجربة عائشة بنت طلحة وسُكينة بنت الحسين–

The Implicit Structures of the Marginalized Female Self: A Reading into the Experience of Aisha bint Talha and Sukayna bint Al-Husayn

خولة ميسي[1]،*

[1] جامعة محمد الشريف مساعدية/ سوق أهراس (الجزائر)، k.missi@univ-soukahras.dz

تاريخ الإرسال: 2025/08/12 تاريخ القبول: 2025/09/18

الملخص:

يروم البحث الحفر في الأنساق المضمرة للذات الأنثوية المهمشة في الروايات التاريخية عن عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، اللتان عُرفتا بعلمهما وأدبهما رغم تهميش دورهما الفكري لصالح نسبهما وجمالهما. ويتساءل: إلى أي مدى أثبتتا ذاتيهما وتحدتا الأنساق السائدة؟ وما سبيل تمردهما؟ وهل تجربتهما رائدة لدور المرأة العربية المسلمة؟ حيث يعتمد المنهج النقد الثقافي مع تحليل سيرتيهما وسياق العصر الأموي، مستعينًا بمصادر تاريخية وأدبية.

يكشف عن مقاومتهما للنسق الذكوري عبر استقلالية عائشة ونوادي سكينة الثقافية، مع إعادة قراءة ناقدة للتراث.

الكلمات المفتاحية:
عائشة بنت طلحة؛
سكينة بنت الحسين؛
تهميش؛
الأنساق المضمرة؛
الذات الأنثوية؛

ABSTRACT:

This study excavates the implicit structures of the marginalized feminine self in historical narratives about Aisha bint Talha and Sukayna bint al-Husayn, renowned for their knowledge and eloquence despite the marginalization of their intellectual roles in favor of lineage and beauty.

It interrogates: To what extent did they assert their selves and challenge prevailing structures? What were the avenues of their rebellion? Is their experience pioneering for understanding the Muslim Arab woman's role?

The methodology adopts cultural criticism alongside analysis of their biographies and the Umayyad context, drawing on historical and literary sources.

It reveals their resistance to patriarchal norms through Aisha's autonomy and Sukayna's cultural salons, advocating a critical rereading of heritage.

Keywords:
Aisha bint Talha, Sukayna bint Al-Husayn, Marginalization, implicit structures , feminine self,

* خولة ميسي.

مقدّمة:

لطالما اهتمت الدراسات القديمة والحديثة بالذات الأنثوية، لما لها من دور حيوي ينعكس على الفرد والمجتمع، فعلى مدى عصور وفي سياقات حضارية مختلفة صارعت المرأة لأجل إثبات ذاتها و وجودها جنبا إلى جنب مع أخيها الرجل، ومدى تفاعلها مع المجتمع، الذي أهمل التاريخ سرد الكثير منه، للأشكال المختلفة من التهميش المسلطة عليها سواء أكانت من قبل القيم الاجتماعية أو الهيمنة السلطوية أو الهيمنة الجندرية الذكورية، لتعاني على مضض: الإهمال والإقصاء والتقزيم والتغييب والتنميط والتشوية وطمس تفردها ودورها وقدراتها الإبداعية؛ لذلك وجدت نفسها أمام تحديات حالت دون تمكينها من حريتها في التعبير عن ذاتها؛ وقد تجلت هذه المعوقات على شكل أنساق مضمرة تتأطر ضمن بنا ثقافية واجتماعية تقيد المرأة وتختلف درجتها من عصر إلى عصر.

وتكمن أهمية البحث في سعيه للغوص في الأنساق المضمرة للذات الأنثوية المهمشة من خلال قراءة حصيفة وعميقة لتجربتين نسائيتين مهمتين من العصر الأموي هما: عائشة بنت طلحة وسُكينة بنت الحسين، قد كانتا من شريفات القوم، فرغم هذه المكانة الاجتماعية المرموقة، فقد واجهتا هيمنة الأنساق الذكورية التقليدية، والقيود الاجتماعية المضيقة الخناق على ذاتها الأنثوية، فإلى أي مدى استطاعت كل منهما إثبات ذاتهما وتحدي الأنساق السائدة؟ وما سبيلهما في ذلك التمرد والتحدي؟ وما هي أشكال التهميش التي واجهت كل منهما؟ وهل يمكن القول إن تجربتهما تعتبر رائدة لفهم مبكر لدور المرأة العربية المسلمة؟

والبحث يهدف إلى الوقوف عند أهم الأنساق المضمرة التي همشت الذات الأنثوية في العصر الأموي، والكشف عنها من خلال تحليل تجربة كل من عائشة بنت طلحة وسُكينة بنت الحسين وتأثيرهما على الأنساق الثقافية السائدة من خلال تحليل مواقفهما وسيرتهما الذاتية، وإعادة قراءتهما وتفكيك الأنساق المضمرة التي تحدّ من ذاتيتهما كأنثى لها الحق في التعبير عن نفسها بكل حرية وثقة، وإبراز تجليات أشكال المقاومة والتحدي لهذا التهميش الكامن في الأنساق المضمرة.

وسنستعين في قراءتنا النقدية لهذين التجربتين الفذتين على بعض آليات النقد الثقافي المناسب لهكذا دراسة، مقسمينا البحث إلى عناوين رئيسة وفرعية تتعمق في الأنساق المضمرة للذات الأنثوية المهمشة لكلتا التجربتين، معتمدينا على جملة من المصادر والمراجع المضيئة للتحولات السياسية والاجتماعية التي أثّرت في مكانة المرأة خلال العصر الأموي، ككتاب فاطمة تجور الموسوم بالمرأة في الشعر الأموي، ومؤلف سعد بوفلاقة شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي، ودراسة لمهى مبيضين المعنونة بالوالهة الحرّى ليلى الأخيلية شاعرة العصر الأموي، وأحمد خليل جمعة له مؤلف بعنوان نساء من عصر التابعين- عائشة بنت طلحة سيدة العفاف والحرية.

1/ مكانة المرأة في العصر الأموي:

تغيرت مكانة المرأة من عصر إلى آخر ومن بيئة لأخرى، ومع العصر الأموي عرفت حرية أرحب ومكانة أرقى لاختلاف الحياة في هذا العصر عن باقي العصور، فشاركت في جوانب مختلفة، وتفاعلت مع الحياة السياسية

والاجتماعية والثقافية والفكرية، فكسرت هيمنة النسق الثقافي التقليدي السائد ودورها الاجتماعي النمطي المتكرر عبر الحضارات كأم وزوجة وأخت وحبيبة وابنة.

ولتحقيق هذه المكانة المؤثرة والغير مسبوقة، استطاعت الذات الأنثوية، تولي أدوار ريادية لم تشغلها من قبل، متحدية جميع الخطابات والأنساق الثقافية المضمرة التي من شأنها تقيد حريتها وتتطوقها، واستطاعت أن تتمرد على ما هو سائد وتدخل في مساجلة مع الخطاب السائد «الخطابات ليست تابعة للأبد إلى السلطة، أو أنها أنشئت ضدها، شأنها شأن مظاهر الصمت، علينا أن نترك مجالا للفاعلية المعقدة والقلقة والتي تجعل من الخطاب أداة للسلطة ونتيجة لها كذلك، ولكنه يمكن أن يؤول عَقَبَة أيضا وعائقًا، نقطة مقاومة و ابتداء لإستراتيجية معارضة. فالخطاب يبث السلطة وينتجها؛ انه يعززها، لكنه يخلخلها أيضا ويفضحها، جاعلا منها ضعيفة عرضة للتهديد»[1]. وهو ما لمسناه في شعر شعراء النقائض خاصة، فصورة المرأة بدت مختلفة عن باقي الموضوعات الأخرى، لأنها جمعت بين رمزين شعريين متناقضين، رمز المرأة الجميلة و المحبوبة العفيفة المتاق إليها، خاصة في مطالع أشعارهم الغزلية، كقول جرير يرد على الفرزدق:[2]

لمَــنِ الدّيــارُ كَــأنّهـا لمْ تُحْــلَلِ، بَينَ الكِنَاسِ و بَيْنَ طَلحِ الأعزَلِ
وَ لَقَدْ أرَى بِكِ، وَ الجَديدُ إلى بِلًى، مَوْتَ الهَوَى و شِفَاءَ عَينِ المجتَلى
نَظَــرَتْ إِلَيْكَ بمثـلِ عَيْـنَيْ مُغْـزِلٍ قَطَعَــتْ حِبالَتَهَــا بِأعْلَــى يَـلْيَلِ
و إذا التَمَسْـتَ نَوالهَـا بخِلَــتْ بِـهِ، وَ إذا عَـرَضْــتَ بِوُدّها لمْ تَبْخَـلِ

وفي مواضع شعرية أخرى يجعل منها الشاعر رمز للفسق والمهانة؛ وهذا عائد إلى أن «هدف النقيضة الأساسي الذي يتعلق بالمرأة هو النيل من شرفها ووظيفتها في النسل، والتهكم من دورها في العلاقة الزوجية والانحراف بها عن هدفها السامي إلى الرذيلة والفجور. وصورة المرأة في مقدمة النقيضة نعثر على صورة للمرأة متوجة بالحب والغزل، تشع بأرق المشاعر وأرهفها. وتكشف عن دور المرأة في الحب والحياة والشعر. أما صورتها في النقيضة ذاتها فتنحصر في وظيفة المرأة الجنسية، وتتسع هذه الصورة لتمسخ هذه الوظيفة وتحولها إلى رجس من عمل الشيطان. ويطور الشعراء من هذه الصورة من طاقتها في السخرية والهجاء»[3]. وهو ما يعرف بالغزل الهجائي، اصطنعه عبيد الله ليهجو بني أمية، فقرع سمعهم بغزله الفاحش بنسائهم، فقد تغزل بعاتكة زوجة عبد الملك بن مروان، وأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك، فصورهما بصورة مهينة تسقطهم من عليائهم، في المقابل يتشبب بزوجتي مصعب سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة تشببا كله وقار واحترام، يقول الرقيات متغزلا بأم البنين:[4]

كَيْفَ نَوْمِي علَى الفِرَاشِ وَ لما يَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةٌ شَعْوَاءُ
تذهل الشيخ عن بنيه و تبدي عَـنْ بُرَاهَـا العَقْلِيَةُ العَذْرَاءُ

فعلى هذا النحو بدت صورة المرأة الشعرية في العصر الأموي بين مدّ وجزر.

يبدو أن النسق الأنثوي خلال هذا العصر شهد تفاعلا مختلفا مع المجتمع، فتطورت أدوارها الاجتماعية في محاولة منها للانفتاح على الأنساق الثقافية العامة رغم استمرار بعض القيود التقليدية، فتمتعت بالتعليم وتدرجت

فيه فلم يقتصر «على الجانب المتمثل في علوم القرآن والحديث واللغة، بل وتعداه للجانب العملي في معالجة ومداواة المرضى، وما الطب إلا مثال لقدرة المرأة على تعلم صنوف العلم وتقديم الفائدة المرجوة منها في المجتمع المسلم»[5]. كما لعبت دورا مهما في نشر العلوم والمعارف والثقافة، فلمع في سماء الدولة الأموية أعلام من النساء: فقيهات، محدثات، شاعرات، ناقدات، مؤدبات؛ نذكر منهن: أسماء بنت أبي بكر الصديق، خصيلة بنت واثلة بن الأسقع، صفية بنت شيبة، الربيع بنت معوز بن عفراء الأنصارية، زينب بنت أبي سلمة، أم الدرداء، رابعة العدوية، عائشة بنت طلحة–موضوع الدراسة– وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان.

فالظاهر أن جميعهن من علية القوم، ذوات حسب ونسب شريف، لهن قدم راسخة في الفقه والتحديث والتعبد والزهد، شاركن في مجالس علمية وحلقات الدرس في المساجد؛ كما زاحمت المرأة بأنوثتها الرقيقة كبار الشعراء والنقاد، «فطرقن فنونا شعرية شتى، وسايرن الرجل في معظم الأبواب المعروفة آنذاك كالرثاء والغزل والمدح والهجاء والفخر وغيرها.. والشاعرات في هذا العصر ينتمين إلى طبقتين: طبقة الحرائر، وطبقة القيان، وقد اشتهرت في هذا العصر شاعرات كثيرات نذكر منهن: ليلى الأخيلية، وميسون بنت بحدل، وليلى العامرية، وزينب بنت الطثرية، وسلامة القس، وحميدة بنت النعمان، وميسة بنت جابر، وغيرهن»[6]. ولعل أكثر من طارت شهرتها بين هذه الشاعرات ليلى الأخيلية، كانت مثال للأنثى المتمردة الجريئة في مواقفها والمتقدة الشاعرية، هزمت الشعراء كالنابغة الجعدي وغيره كثير، ممن يَفِدُونَ عليها يُسْمِعُونَهَا شعرهم طالبين رأيها النقدي؛ «وعندما يقبل هؤلاء الشعراء بأن تحكم ليلى بينهم، فإنها بذلك ترتقي إلى مصافهم و تكون بمنزلتهم، إن لم تكن أعلى منزلة من بعضهم؛ لأنها غلبت غير واحد منهم في مهاجاة أو أكثر وقعت بينها وبينهم»[7]. إضافة إلى شجاعتها في التعبير عن حبها لتوبة بن حمير واستمرارها في مقابلته ومبادلته المشاعر حتى بعد زواجها، ورثائها له بعد موته، متجاوزة حدود النسق الذكوري المهيمن على باقي الأنساق الثقافية.

كما استطاعت المرأة أن تشترك في العمل الحزبي، الذي نشط في هذا العصر، «فكانت الحروب بين علي ومعاوية ميدانا فسيحا لمواهب المحاربين والخطباء وعكرشة بنت الأطرش من النساء اللائي حملن السيف في موقعة صفين وكانت تقف بين الصفوف تحض على قتال معاوية في فصاحة وبلاغة»[8]. ومن مثيلاتها أم الخير بنت حريش وسودة ابنة عمارة وبكارة الهلالية و الزرقاء بنت عدي وأم سنان بنت خيثمة...، وإلى جانب هؤلاء النسوة تدخلت في أمور السياسة «زوجات بعض الخلفاء مثل أم البنين زوجة الوليد بن يزيد ابن عبد الملك وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر وكان لها مكانة ملحوظة في قصر الوليد الذي كان يستشيرها في مهام أمر الدولة»[9]. وفي ذات السياق، حظيت المرأة بمعرفة حاذقة بفنون الغناء والموسيقى خاصة الجواري والموالي، لما شهده أهلها من يُسر حال ورفاهية مترفة، تساعد على انتشار الكثير من دُوْرِ القيان والغناء خاصة بالمدينة، كدار جميلة التي اشتهر بها مغنيات «كن يزرن مكة وخاصة في مواسم حجها، وذهبت جميلة في أحد المواسم، وكان معها الفَرِهَة وعَزَّة الميلاء وحبَابة وسَلاَّمة وحُليدة وعُقيلة والشماسيّة وفَرْعه وبلبلة ولذّة العيش وسُعيدة والزرقاء، ثم خمسون قينة لأهل المدينة خرجن معها لكي يأخذن عنها بعض الغناء»[10] وما سُقنا هذا الحديث إلا لنبين الأدوار الاجتماعية التي شغلتها

المرأة في هذا العصر والحرية التي تمتعت بها، على الرغم من التضييق الخانق للنسق السلطوي المهيمن على جميع المجالات.

في ظل هذا التطور الحضاري الذي شهده العرب في هذه الفترة، أُتيحت للذات الأنثوية المهمشة فرص أكبر للمشاركة في المشهد الثقافي والفني، فالسياق المختلف «يمثل مناخا ضروريا لأي إنتاج ثقافي، فهو الذي يهيئ للمساهمين في أي ثقافة ما شروط الإمكان من وسائل إنتاج بمختلف أشكالها، وكذلك وسائل الاستهلاك»،[11] فهذه الزيادة والتوسع في مجالات التأثير، في بيئات خاصة كالمدينة ومكة ودمشق، شكلت فضاءات رحبة للتفاعل مع بعضها البعض، ونشر ثقافة وعي جديدة ومختلفة، تجاوزت فيها المرأة حدود النسق الذكوري وهيمنته الدائمة على الأنساق الثقافية، كإعلان عن رفضها للتهميش والإقصاء والاستبعاد والتمرد، وله أشكال «تبدأ من رفض الرأي الآخر، ثم رفض السلطة، وإن اختلفت صورتها أو شكلها، كما أنه قد يكون أحيانا رفضا للنُّظم والقوانين والأعراف المرعية والمعمول بها والمتفق عليها، وهو يمثل أيضا نوعا من الغضب المكبوت أو الرفض لأسلوب حياة معين، بادعاء الرغبة في الحرية أو التعبير عن النفس أو تحقيق الذات».[12] من هذا المنطلق ذكرنا هذه الأسماء النسائية المتمردة على الأنساق المضمرة من: قيود اجتماعية، وتمثيلات مقزمة لها وحصرها في أدوار نمطية... وغيرها من الأنساق التي حولتها المرأة في هذا العصر إلى تحديات وحاولت أن تتجاوزها أو تقاومها أو تتأقلم معها في سياقات مختلفة وعديدة؛ وكنموذج تطبيقي اخترت تجربة عائشة بنت طلحة وسُكينة بنت الحسين للتعمق في الموضوع أكثر.

2/ تجليات الأنساق المضمرة للتهميش في تجربة عائشة بنت طلحة وسُكينة بنت الحسين:

الظاهر لنا أن العصر الأموي بكل تفاصيله وتحولاته وصراعاته، قد استطاع نقل العرب من البداوة إلى الحضارة، فشهدت بيئات رفاهية مترفة وحياة رغيدة على حساب بيئات أخرى، مما شجع على الانفتاح والتحرر من قيود الأنساق المضمرة، وانسجم الذوق الجمالي العام مع «التأثير الجمالي وهو تأثير الهيمنة أي إخضاع الأفراد للأيديولوجية المهيمنة، إيديولوجية الطبقة الحاكمة».[13] التي سمحت للمرأة أن تشارك في المشهد الثقافي والفني والفكري وحتى السياسي والاقتصادي، لتأنس الذات الأنثوية بما حققته بالمقارنة لمن سبقنها في التاريخ العربي، لتتوهم أنها استطاعت كسر القيود وتجاوز الأنساق المهيمنة (القبيلة، السلطة، الجندر)، بينما هي في الواقع «مشروع حب غير متحقق لدى الشعراء العذريين، ومشروع جس د زاخر بالنعم والملذات لدى الشعراء الحسيين، غير أنها وفي كلتا الحالتين صنم من غير رأس ولا صوت. وإن كانت الأصوات النسائية الشعرية القليلة قد جاءت عبر الجواري والقيان أو بعض الأميرات مثل ولادة بنت المستكفي غير أن تلك الأصوات التي زخرت بها صفحات كتب الأغاني، وطوق الحمامة، والعقد الفريد، وغيرها أصوات زمن كان يحاول أن يرفه عن الذكورة أكثر مما يوقظها على المعاني والأحاسيس العميقة التي تعبر عن الذات الأنثوية خارج مرآة الدور الاجتماعي الترفيهي الذي كانت تلعبه في بلاط الرجل الفنان– أو الحاكم آنذاك»[14]. وبين التقييد الاجتماعي والديني والسياسي اشتهرت عائشة بنت طلحة وسُكينة بنت الحسين.

1.2/ عائشة بنت طلحة ومقاومة الأنساق المضمرة:

أ/ من هي عائشة بنت طلحة؟

ورد في كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، أنها: «عائشة بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيْم. وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق. أخبرني الحسن بن يحي قال حماد قال أبي قال مصعب: كانت عائشة بنت طلحة لا تستُر وجهَها من أحد. فعاتبها مصعب في ذلك، فقالت: إنّ الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببتُ أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم، فما كنت لأستره، والله ما في وصمه بقدر أن يذكرني بها أحد. وطالت مُرادَّةُ مصعب إياها في ذلك، وكانت شرسة الخلق»[15]. فهذا الخبر، يؤكد أمرين: أنّ عائشة كانت من الشخصيات البارزة في المجتمع، ذات نسب شريف وغنى فاحش؛ كما اشتهرت بالجمال والشراسة، فأيُّ تهميش يُسلط على هكذا شخصية، استطاعت فرض احترامها على الجميع؟

ب/ التمثيلات التنميطية التي لحقت بشخصها:

إن المكانة التي تمتعت بها عائشة– كما سبق التوضيح– فهي من أسرة عريقة، وقد تزوجت من كبار الصحابة والتابعين والأمراء وكان أولهم ابن خالها عبد الله بن عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق ومصعب بن الزبير وعمر بن عبيد الله التيمي، روت الحديث عن خالتها عائشة أم المؤمنين–ض–، ولكن جميع الأخبار التي وصلتنا تركز على جمالها الفتان وأنوثتها الطاغية والمؤثرة في الرجل، فقد تزاحم على حبها رجال مشهورين، وتغزل بها «شاعر الغزل الشهير عُمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزومي، الذي ولى إمارة مكة لعبد الملك بن مروان». [16] هذا التركيز المبالغ فيه على جمالها، قد همش إسهاماتها كراوية حديث وعالمة في الفقه ونقد الشعر ولها معرفة بالأجرام والفلك والنجوم..، فقد «كانت عائشة بنت طلحة أشبه الناس بخالتها عائشة أم المؤمنين، وأحبهم إليها، وأطبعهم على علمها وأدبها، فقد تتلمذت عليها وروت عنها الحديث النبوي الشريف، وحديثها مخرجٌ في الصحاح،/.../ وروى عنها الحديث ثلة من أكابر التابعين، وجلة العلماء، منهم: ابنها طلحة بن عبد الله، وابن أخيها طلحة بن يحي، وابن أخيها الآخر معاوية بن إسحاق، والمنهال بن عمرو، وفضيل بن عمرو الفقيمي، وحبيب بن أبي عمرة، وعطاء بن أبي رباح، وعمر بن سعيد وغيرهم»[17]. كما كانت لها حلقات خاصة تستقطب كبار العلماء و الفقهاء ، وقد أعتد بمرويات أحاديثها.

ومعرفتها لا تقف عند هذا الحدّ بل أنها –فيما روي عنها– كانت «ما تذاكروا شيئا من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجمٌ ولا غار إلا سمته»[18]. فلماذا إذا يُنظر لهذه التجربة ومثيلاتها في هذا العصر نظرة نمطية– على أنها امرأة جميلة– تسامر الرجال وتؤنسهم وتلهيهم، بالرغم من أنها كانت منافسة قوية لهم؛ «وقد ردّدت المطولات النقدية الكثير من الأحكام أو التعقيبات النقدية، التي أصدرتها هذه الطائفة من سيدات الطبقة الجديدة، على شعراء الغزل في زمانهن، وكان لبعضهن ما يمكن أن يعتبر ندوة أدبية أو صالونا أدبيا، قد تترفق الرواية فتقول إن إحداهن كانت تسمع من وراء ستار–كسكينة مثلا– ثم ترسل جاريتها تخاطب الشعراء مواجهة، وقد يُستدعى الشاعر من سيدة مجهولة، فيساق إليها معصوب العينين، لينشدها، فيجد الجمال والثقافة والذوق»[19].

فتحرر المرأة في هذا العصر جاء مصاحبا للحياة الأرستقراطية التي عاشتها حرائر وشريفات الدولة، ولم يكن نوعا من الثورة أو حتى التعبير عن ذاتهن الأنثوية؛ لذلك –في رأيي– أن التهميش المعرفي لها لم يكن واردا؛ لأنهم لم يعترفوا أصلا بقدراتها العلمية ونديتها للرجل، وكانت حتى في جلساتها يُنظر لها على أنها جسد أنثوي جميل وإذا تعلمت فن من الفنون أو علم من العلوم، سيكون أفضل وأحسن لها، لأنها ستكون أوقع بقلب الرجل.

فكان كبار رجالات الدولة يتزوجوا خيرة النساء: الجميلات، المثقفات، ذوات الحسب والنسب ليتفاخروا بهذا الفعل، كما حدث مع مصعب بن الزبير «الذي جمع، كما تقول الروايات، بين أجمل امرأتين في عصره، و هما ممثلتان جيدتان للفئة الأرستقراطية في قريش بالحجاز، إذ كان لوفرة المال يومئذ أثره في تطوير بعض العادات الاجتماعية أو خلق عادات جديدة»،[20] فإلحاق امرأة بمواصفات سُكينة وعائشة لحريمه، كان محط تنافس بين الرجال ومصدر إرضاء لغروره الذكوري «ليتزوج مصعب عائشة وجمع بين عقيلتي قريش، بالإضافة إلى ولاية العراق، وبذلك تحققت أمنيته وأحلامه».[21] فكانتا من بين أهم انجازاته العظيمة التي يذكرها كتب الأخبار والسير والتراجم.

يبدو إذا أن النسق الذكوري كان هو المهيمن على الذات الأنثوية، حتى وإن وصفتها الروايات التاريخية بأنها كانت ذات شخصية قوية ومتمردة وتظهر استقلالية في التعامل وقد روي عنها أنها كانت «لا تَسْتُر وجهها من أحد. فعاتبها مصعب في ذلك، فقالت: إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم، فما كنت لأستره، ووالله ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحدٌ. وطالت مراده مصعب إياها في ذلك، و كانت شرسة الحلق»[22]. مما جعلها عرضة للنقد في مجتمع ذكوري وبالتالي تهميشها، حتى يتم كتم صوتها فلا يعلو ليؤثر في باقي النساء.

فالمستفاد مما سبق أن الرواية التاريخية لتجربة عائشة بنت طلحة– على الأقل– قد ركزت على جوانب خاصة من شخصيتها (كجمالها ودلالها وعزّها وجاهها ونسبها...) وهمشت إسهاماتها العلمية والمعرفية، فلم يُحتفَ بعائشة كراوية للحديث مَوْثُوقَةِ السند، لأنها روته عن خالتها عائشة أم المؤمنين، وكانت «من علية النساء علما وقدرا وصدقا، لذلك أثنى عليها العلماء والكبراءُ ممن يعرفون رواية الحديث، وممن لهم خبرة بعلومه»[23]، فتمثلوا أكثر بسفورها في الحج وحدّة طبعها ونشوزها مع أزواجها وجمالها الفتان وتفاصيل حسية لجسدها المفعم بالأنوثة؛ ليبقى صوتها حبيس الاستبعاد والإقصاء والتهميش من قبل الأنساق الثقافية التقليدية المهيمنة؛ وإن أبدت مقاومة لبعض القيود الاجتماعية والدينية المسلطة على المرأة.

2.2/ سُكينة بنت الحسين وتجاوز الأنساق المضمرة:

ب/ من هي سُكينة بنت الحُسين؟

اختلف رواة الأخبار والتاريخ في تسميتها وفي تاريخ ولادتها؛ فيُرجح أن «اسمها الحقيقي هو آمنة بنت الحسين، وإنما سكينة لقب لقبته به أمها الرباب، وذلك لسكينتها وهدوء في طبعها غلب عليها، حتى كانت السكينة صفة لها وهذا أثبته أرباب السير والتأريخ على اختلاف في اسمها بين آمنة وأميمة، واتفقوا على أن سكينة لقب وصفه لها اشتهرت بها»[24]. من بيت نبوي شريف، هاشمية قرشية، «أباها هو الحسين بن علي–ض– وأمها هي الرباب بيت

امرئ القيس بن عدي الكلبي أحد أسياد بني كلب بالشام، أسلم في زمن عمر ابن الخطاب –ض– وزوج ابنته الرباب من الحسين بن علي فولدت له عبد الله بن الحسين الذي يُكنى به، ثم أنجبت له ابنته سُكينة»[25]؛ ويُقدر أنها ولدت سنة 47 هـ.

عُرفت سُكينة بملاحة ملامحها وجمالها وأدبها وحسن أخلاقها وعلمها، تزوجت بابن عمها عبد الله بن الحسين بن علي، ثم مصعب بن الزبير بن العوام، ثم عبد الله بن عثمان بن حكيم، ولمّا مات تزوجها زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان.[26] وإلى جانب حسنها ودلالها وترفها، كانت سُكينة من أفصح وأبلغ النساء، عُرفت بظُرفها وفكاهتها ونوادرها مع أشعب وذكائها وفطنتها؛ بالإضافة إلى أنها شاعرة وناقدة فذّة، توافد على نواديها شعراء عصرها، يسمعون نقدها وينالون عطائها وهداياها.

أ/ سُكينة وتأثيرها على النسق الثقافي:

تجاوزت سُكينة بنت الحسين حدود الأنساق النمطية المكبلة لدور المرأة وصوتها، هذا راجع لأسباب عدة منها: أنها كانت من أسرة شريفة وذات جاه وفضل وعلم وملكة شعرية وذوق نقدي عميق وحصيف؛ علا صوت سُكينة الشاعرة والناقدة، فلعبت دورا فكريا وثقافيا مهما، خاصة بعد زواجها بمصعب بن الزبير، ففي كنفه «طارت شهرة سكينة، وأضحت كالعلم في عالم النساء القرشيات الأدبيات العالمات»[27]. وجعلت من دار الضيافة ناديا ثقافيا كسر القوالب النمطية وقدم نموذجا مختلفا للمرأة المثقفة والمؤثرة، التي يقصدها الشعراء لسماع رأيها من شعرهم، ويُروى أنهم «اختصموا عندها في المفاضلة بين جرير والفرزدق وكثير والأحوص وجميل ونصيب وأنها جلست في مكان تراهم ولا يرونها وأنها أخرجت وصيفة لها روت الأشعار فكانت الوصيفة تلقي على سكينة شعر كل واحد منهم وترجع إليهم بما تعيبه سيدتها»[28]. فعلى الرغم من اعتراف معاصريها من الشعراء بقوتها الشعرية والنقدية، إلا أنّ الرواة ركزوا أكثر على جمالها وأناقتها، ولم يهتموا بشاعريتها كما هو الحال مع الشعراء الذكور.

مما يثير الحيرة أيضا أن صورة سُكينة الشعرية، اقترنت بحادثة كربلاء ومقتل الحسن والحسين ومدى تأثيرها عليها، فتم تصويرها على أنها رمز للضحية والحزن الأليم، فقد رثّت أباها بمقطوعة شعرية تفيض حزنا وألما على فقدها لأبيها، إذ تقول:[29]

لا تعـذُلِيـهِ فهـمُّ قـاطـعٌ طرقَـهْ	فـعينُـهُ بدمـوعٍ ذرفٍ غـدِقَـهْ
إنَّ الحسينَ غَـداةَ الطَّـفِّ يرشقُـهْ	ريبُ المنونِ فما أنْ يُخطِئُ الحدَقْه
يا أُمَّةَ السوءِ هاتُوا ما احتجاجُكُمُ	غدًا و جُلُكُمُ بالسيفِ قدْ صَفَقَهْ
الـويـلُ حـلَّ بكُمْ إلا بمنْ لحِقَهْ	صـرتُمُـوهُ لأَرمـاحِ العِـدَا دَرَقَهْ
يا عينُ فاحتفلِي طولَ الحياةِ دمًا	لا تبكِ ولدًا و لا أهلًا و لا رُفْقَهْ
لكنْ على ابنِ رسولِ اللهِ فانسكِبِي	قيحًا و دمعًا و في اِثْرَيْهِمَا العلقَهْ

كما أن انتمائها لآل البيت، قد وضعها في مواجهة مع الأحزاب الأخرى، فتحدّت الفقهاء وذوي السلطان، وأعلنت تمردها على الفتاوى النمطية والذكورية المؤسسة على أطماعهم، وقد كانت حادثة كربلاء، منعرجا مهما في

حياتها السياسية، فقد هاجمت السياسة الأموية، واستطاعت بقوة شخصيتها التأثير في كثير من الناس، الذين ناصروها والتفوا من حولها؛ لتكون سُكينة المرأة الوحيدة التي علا صوتها معبرة عن رفضها وتمردها عن الفتاوى الذكورية والاستبداد السياسي الذي جثم على صدر الشعب إبان العصر الأموي، فمما روي عنها أنها «كانت شجاعة اللسان و الجنان: سمعت أن ابن مطير– خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم المرواني– يشتم جدها عليه الصلاة و السلام، فكانت تجيء يوم الجمعة لتشهد صلاة الجماعة، فتقوم بإزاء الحارث إذ يصعد المنبر، فإذا شتم عليا– رضي الله عنه– تصدت له سُكينة فشتمته، ثم أمرت جواريها أن يشتمنه، فلا يملك ابن مطير أن يرد عليها، بل يكتفي بأن يأمر الشرطة بضرب الجواري»[30]. هذا ما كان من تمرد سُكينة على الأنساق الثقافية التقليدية السائدة، التي صارت ملهمة لجميع نساء عصرها، فالتفوا حولها وصاروا يجتمعون في صالوناتها ومجالسها، لتكون بهذا الصنيع قد أسست لبوادر حركة ثورية رافضة للظلم والتعسف والنفاق والقتل والقمع نتيجة الصراعات السياسية الحزبية آنذاك، ليرتفع صوتها رافضة للتهميش الديني والسياسي المسلط على المرأة وعلى الأوضاع الاجتماعية المتدهورة، نتيجة تعسف الساسة وغلبة الهيمنة الذكورية على سائر الأنساق الثقافية.

فتمرد ذاتها الأنثوية لم يتوقف عند هذا الحدّ، فقد تخط حدود المألوف والمعروف في تقاليد خطبة وزواج المرأة، فثقتها الكبيرة بشخصيتها وجمالها وقدراتها ومكانتها، جعلتها تخرق سنن العرب وأعرافهم، فتضع لزيد بن عمر بن عثمان بن عفان شروطا للزواج بها: «أولها: ألا يمس امرأة سواها، والثاني: ألا يحول بينها وبين شيء من ماله و الثالث: ألا يمنعها مخرجا تريده، فان أخل بأحد هذه الشروط فهي منه خلية!»[31]؛ لتتجاوز سُكينة الشروط النمطية التي ألفها المجتمع في دفع مهر المرأة، وتقرر قبول الزواج وفق شروط تكفل لها تحقيق ذاتيتها كأنثى لها ميزات خاصة ومكانة رفيعة في المجتمع، فتضمن لها حياة مستقلة بكيانها تتمتع فيها بحريتها الكاملة.

خاتمة:

بعد هذه القراءة النقدية الثقافية لتجربتين تاريخيتين حافلتين بالتحديات والمواقف والأحداث التاريخية، التي أثبتتها كتب السير والتراجم والأعلام؛ حيث أبانتا على ما استطاعت المرأة تحقيقه في العصر الأموي، وما خاضته من تحديات في سبيل الوصول لتلك المكانة، وكشفت هذه الرحلة الخاطفة الرامية لتحليل الأنساق المضمرة، التي سعت لتهميش الذات الأنثوية في سياقها التاريخي على جملة من النتائج منها:

. كشفت الدراسة على أن تجربة كل من عائشة بنت طلحة وسُكينة بنت الحسين دليل قاطع على أن الذات الأنثوية في هذا العصر أبانت عن قدرة على المقاومة والتجاوز والإبداع.

. أن التهميش في هذه الحالة، تمثل في تلك الأنساق المضمرة المستترة وراء الأنماط التقليدية التي ربطت شخصية عائشة بالجمال والفتنة، وربطت سُكينة بالمأساة والرمزية والضحية للإسلام المسيس، وتغاضى عن إبداعاتهما الفكرية والعلمية.

. استطاعت عائشة بفضل جمالها ومكانتها الاجتماعية المرموقة فرض استقلاليتها ومقاومة الكثير من القيود الاجتماعية، مما أتاح لها الفرصة لأن تلعب دورا فعالا في رواية الحديث.

. إن انتماء سكينة بنت الحسين الرفيع لآل البيت، ساهم في اكتساب شخصيتها الجريئة والقوية، التي جابهت بها الأنساق الثقافية الخفية، فحولت بيتها إلى نادٍ ثقافي أدبي نقدي، فالتف حولها مناصرات ومناصرين في محاولة منها لتقويض سياسة النسق المهيمن.

. تعتبر تجربتهما نموذجا ثقافيا تاريخيا رياديا عن تمكين الذات الأنثوية في ظل الأنساق المضمرة، التي حاولت عرقلة دورها في المجتمع.

وفي الأخير نوصي بإعادة قراءة تراثنا من منظور نقدي معاصر، يخدم قضايا العصر، وحتى نعمق فهمنا بدور المرأة التاريخي والاجتماعي، ولا نقتصر على سيرهم وأخبارهم فحسب، بل نعنى كذلك بفكرهم وعلمهم.

المصادر والمراجع:

المؤلفات باللغة العربية:

- الأصفهاني، أبو الفرج، (2008)، الأغاني، دار صادر، بيروت.
- بوفلاقة، سعد، (2007)، شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي، دار المناهل، بيروت، لبنان.
- تجور، فاطمة، (1987)، المرأة في الشعر الأموي، منشورات ذات التراسل، الكويت.
- جرير: ديوانه، (1976)، دار صادر، بيروت.
- جمعة، أحمد خليل، (د.ت)، نساء من عصر التابعين- عائشة بنت طلحة سيدة العفاف والحرية، دار ابن كثير، دمشق.
- حسان، محمد، (د.ت)، نساء في زمن النبوة، مكتبة فياض، المنصورة.
- خميس، ظبية، (1997)، الذات الأنثوية من خلال شاعرات حداثيات في الخليج العربي، دراسة في النقد
- الأدبي النسائي، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، دمشق.
- درويش، مهجة محمد كامل، (د.ت)، المرأة في حياة وشعر العصر الأموي، المطبعة الفنية الحديثة.
- الرقيات، عبيد الله بن قيس، (2009)، ديوانه، دار صادر، بيروت.
- عبد الرحمان، عائشة، (1999)، سكينة بنت الحسين، دار الهلال.
- عبد الله، محمد حسن، (1987)، صورة المرأة في الشعر الأموي، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت.
- على، الحلو محمد، (2015)، عقيلة قريش آمنة بنت الحسين عليها السلام الملقبة بسكينة.
- مبيضين، مهى، (2011)، الواهة الحرّى ليلى الأخيلية شاعرة العصر الأموي، الأهلية للنشر، الأردن.
- المقدم، السيد عبد الرزاق، (د.ت) السيدة سكينة عليها السلام، العتبة الحسينية المقدسة.
- ضيف، شوقي، (1976)، الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، دار المعارف، مصر.
- الكعبي، رائد حاكم، (2018)، التراث وأنساق الثقافة قراءة في كتاب الأغاني، دار رسلان، سوريا، دمشق.
- النقبي، عبد الرحيم عبد الله محمد، (2010)، التعليم في العصر الأموي.

المؤلفات باللغة الأجنبية:

- Yong ,Robert, (1981), Untying the text: Apost-Structuralist Reader, by routledge & kegan paul,USA.

المقالات:

- السري، أحمد، سيرة شخصية نسائية من نساء صدر الإسلام– عائشة بنت طلحة سيدة العفاف والحرية، دورية كان التاريخية، ع41، 2018.

- Howaed, Jean,(2005) ,Terence Hawqes: Textual Practice, edition published in the Taylor&Francise- Library, Vol8, N3, p66.

الهوامش والإحالات:

[1] Robert Yong: Untying the text: Apost-Structuralist Reader, by routledge & kegan paul, USA,1981, p50-51.

[2] جرير: ديوانه، دار صادر بيروت، 1976، ص 356، 357.

[3] فاطمة تجور: المرأة في الشعر الأموي، ط1، منشورات ذات التراسل، الكويت، 1987، ص409.

[4] عبيد الله بن قيس الرقيات: ديوانه، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، 2009، 95، 96.

[5] عبد الرحيم عبد الله محمد النقبي: التعليم في العصر الأموي، 2010، ص 94.

[6] سعد بوفلاقة: شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي، ط1، 2007، دار المناهل، بيروت، لبنان، ص 227.

[7] مهى مبيضين: الوالهة الحرّى ليلى الأخيلية شاعرة العصر الأموي، ط1، الأهلية للنشر، الأردن، 2011، ص 54.

[8] مهجة محمد كامل درويش: المرأة في حياة وشعر العصر الأموي، المطبعة الفنية الحديثة، ص16.

[9] المرجع نفسه، ص 31.

[10] شوقي ضيف: الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، ط3، دار المعارف، مصر، 1976، ص 184.

[11] رائد حاكم الكعبي: التراث وأنساق الثقافة قراءة في كتاب الأغاني، دار رسلان، سوريا، دمشق، 2018، ص 162.

[12] المرجع نفسه، ص 193.

[13] Jean Howaed , Terence Hawqes : Textual Practice, Vol8 ,N3,edition published in the Taylor&Francise-Library,2005,p66.

[14] ظبية خميس: الذات الأنثوية من خلال شاعرات حداثيات في الخليج العربي، دراسة في النقد الأدبي النسائي، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، دمشق، 1997، ص 7،8.

[15] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، تحقيق: إحسان عباس، مج11، ط3، دار صادر، بيروت، 2008، ص 122.

[16] أحمد السري: سيرة شخصية نسائية من نساء صدر الإسلام– عائشة بنت طلحة سيدة العفاف والحرية، دورية كان التاريخية، ع41، 2018، ص24.

[17] أحمد خليل جمعة: نساء من عصر التابعين– عائشة بنت طلحة سيدة العفاف والحرية، دار ابن كثير، دمشق، ص18.

[18] المرجع نفسه، ص 29.

[19] محمد حسن عبد الله: صورة المرأة في الشعر الأموي، ط1، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، 1987، ص 160.

[20] أحمد السري: سيرة شخصية نسائية، مرجع سابق، ص 24.

[21] محمد حسان: نساء في زمن النبوة، ط1، مكتبة فياض، المنصورة، ص 80.

[22] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، مرجع سابق، ص 122.

[23] أحمد خليل جمعة: نساء من عصر التابعين، مرجع سابق، ص 20.

[24] الحلو محمد علي: عقيلة قريش آمنة بنت الحسين عليها السلام الملقبة بسكينة، ط3، 2015، ص 27.

[25] محمد حسان: نساء في زمن النبوة، مرجع سابق، ص 134.

[26] المرجع نفسه، ص 137.

[27] المرجع السابق، ص 139، 140.

[28] السيد عبد الرزاق المقدم: السيدة سكينة عليها السلام، العتبة الحسينية المقدسة، ص 87.

[29] المرجع نفسه، ص 150.

[30] عائشة عبد الرحمان: سكينة بنت الحسين، دار الهلال، 1999، ص 124.

[31] المرجع نفسه، ص 106.